الجيوبوليتيكا الحضارية للتطرف فى دول المتوسط

د. راقدى عبدالله*

أستاذ العلاقات الدولية، جامعة باتنة ١، الجزائر

أدى التدخل الغربى فى العراق، وليبيا، واليمن، وسوريا إلى تغيير أنظمة سياسية وتفكك مجتمعى ومؤسساتى، وتنامى دور حركات الإسلام السياسى والإرهاب، وتفاقم الهجرة غير الشرعية نحو أوروبا. وفى المقابل، تفاقمت معضلة العجز عن دمج المسلمين فى المجتمعات الأوروبية، ومن ثم القصور فى إدارة التعدد والتنوع الثقافى والدينى، مما خلق معضلة أمنية مجتمعية متأزمة، جراء انتشار التطرف والعمليات الإرهابية فى بلدان أوروبا. وقد قوبل هذا التطرف ببروز التعصب القومى والدينى بأبعاده المتوارثة تاريخيا المتجددة، مع المطالبة بسياسات متشددة فى قضايا الهجرة واللاجئين.

إن الفهم الجيد للعلاقات فى المتوسط، فى ظل تعاظم المخاطر الناجمة عن الهجرة، وصعود دور اليمين المتطرف فى عدد من المجتمعات الأوروبية، يقتضى توظيف مقاربة الجيوبوليتيكا الدينية والحضارية كأداة لتفسير سلوكيات الحكومات التى تواجه خطر جماعات الإسلام السياسى المتطرفة فى منطقة جنوب حوض المتوسط، وإمكانية سيطرتها على الحكم، إضافة إلى صعود حركات اليمين المتشدد والمتطرف فى أوروبا التى تشدد على الهوية الأوروبية المسيحية، وما سينتج عنها من سياسات متشددة تؤدى لتصادم حتمى فى شكل صراع حضارى.

مع انتهاء الحرب الباردة، تزايدت أهمية ودور البعد الحضارى الذى حل محل الأيديولوجيا فى إدارة العلاقات الدولية على المستوى القيمى. أما على المستوى المادى، فقد تزايدت أهمية الجيوبوليتيكا الاقتصادية، مقابل تدنى جدوى استخدام القوة العسكرية فى العلاقات الدولية. وقد صاحب هذا التغير تنامى شكل جديد من النزاعات الدولية يعرف بالجيل الرابع، حيث النزاعات الداخلية هى الأكثر انتشارا من الحروب التقليدية بين الدول. إلا أن هناك اتفاقا عاما على أن الانقسام والتنوع الإثنى على أساس عرقى أو دينى أسهم فى تغذية وإذكاء هذ الشكل الجديد من النزاعات الدولية فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

تشكل منطقة حوض المتوسط واحدا من الأقاليم الدولية التى تشهد هذا الشكل من النزاعات، سواء فى الضفة الشمالية منه، خلال فترة التسعينيات، خاصة فى منطقة البلقان، أو فى الضفة الجنوبية مطلع القرن الحادى والعشرين، كما حدث ويحدث حاليا فى العراق، وسوريا، واليمن، وليبيا، والسودان. وهذا الطابع الجديد من النزاعات أفرز جملة من التحديات، أبرزها ظاهرة تدفق المهاجرين واللاجئين بشكل متزايد، ومستمر، وغير مسبوق نحو أوروبا.

وقد أدى هذا التدفق إلى تزايد أعداد الجالية المسلمة فى الدول الأوروبية، وتنامى الإحساس لدى فئات من المجتمع الأوروبى بأن المسلمين، بثقافتهم الرافضة للاندماج، لهم مشروع مناقض لمشروع الحضارة الأوروبية. وقد تزايد هذا الرفض بعد التفجيرات التى أصابت عددا من الدول الأوروبية كبريطانيا، وإسبانيا، ثم فرنسا، وبلجيكا. فى أجواء كهذه، تبلورت مواقف وأفكار، تقاطعت فيها الاتجاهات الشعبية، ورؤى منظمات المجتمع المدنى وجماعات الضغط مع المستوى الرسمى، فيما سمى بالأحزاب اليمينية المتطرفة.

أما على المستوى الأكاديمى، فقد أعيد الاعتبار للمنظور الجيوبوليتيكى عموما، والحضارى الدينى خصوصا، مع ظهور كتابات صمويل هنتنجتون حول "صدام الحضارات" بين

الحضارتين والثقافتين المسيحية والإسلامية، وكتابات فرانسيس فوكوياما حول "نهاية التاريخ"، وتأكيده سيادة القيم والثقافة الغربية لباقى المجتمعات، ليؤسس هذا الطرح الأكاديمى لنوع جديد من الصراع سوف يسود العالم خلال القرن الحادى والعشرين. ولأن الصراع الدائر والتهديدات القائمة فى عدد من الأقاليم الفرعية فى منطقة حوض المتوسط يأخذان الطابع الثقافى-الحضارى، فإن الجيوبوليتيكا بأدواتها المنهاجية كفيلة بإعطائنا أو تزويدنا بفهم جيد لطبيعة الصراع بين الغرب العلمانى (المسيحى الأوروبى) والدول والمجتمعات التى تلعب فيها الأديان دورا أكثر تأثيرا فى الحياة العامة.

أولا- مدخل مفاهيمى:

١- الجيوبوليتيكا الحضارية فى المتوسط:

يمكن تعريف الجيوبوليتيكا بعدّها: "صراع مختلف القوى (الدول والحركات، أو المنظمات المسلحة وحركات التحرير) فى بيئة جغرافية من أجل السيطرة والتوسع خارج تلك البيئة". ويحتدم الصراع وفقا لما يزخر به ذلك المكان من موارد القوة المادية، ووفقا لما يروج له من أفكار وعقائد(١). وإلى جانب تأثير العوامل المادية، كالجغرافيا، والاقتصاد، والديموجرافيا، برزت العوامل اللامادية (القيم والأفكار) ذات الصلة بالبعد الحضارى فى فترة ما بعد الحرب الباردة كمحركات للسياسة الداخلية والخارجية، مما يدفع إلى إقحام المتغيرات الثقافية، والدينية، والإثنية ضمن أجندة البحث فى إطار ما اصطلح عليه بالجيوبوليتيكا الحضارية.

ويعد جون كيرتلند رايت John Kirtland Wright (1891-1969) من الأوائل الذين سعوا إلى استكشاف دور الدين أو القيم الثقافية الحضارية، وانصهارها فى المفاهيم الجغرافية والدينية(٢). ففى كتاباته العلمية التى عنونها بـ"جيوسوفيا" Geosophy(٣)، أدخل مصطلح "الجيوبتيا" Geopiety، التى عرفها بعدّها الاعتقاد أو التأليه لقوى ما وراء الطبيعة(٤). ويشير المصطلح إلى البعد المتعلق بتدين الإنسان، وارتباطه العاطفى بمجاله الأرضى الخاص(٥). بحسب جيراتجان ديجنيك، جاءت إسهامات رايت كدراسة لكتابات علماء دين متقدمين، أثاروا ودرسوا الحقائق الجيولوجية لطوفان نواشيان Noachian Deluge فى الطبيعة، ورأوا أن البيئة الخصبة أو الآمنة هى المفضلة بالنسبة للأجناس التى يفضلها الله(٦). يستمر هذا الاعتقاد حتى اليوم. فعقب الزلزال الذى ضرب إيطاليا فى ٣٠ اكتوبر ٢٠١٦، ارتفعت أصوات من داخل الكنيسة تفسر ذلك بعقاب سلطة الله على المجتمع، نظير الفساد الأخلاقى الذى وقعوا فيه (زواج المثليين، على سبيل المثال).

وميز أنتونى سميث Anthony Smith بين أربعة مظاهر للبعد المقدس "Sacred Dimention":

- المظهر الأول: الانتخابات الإثنية أو فكرة الاصطفائية، حيث يرى سميث أنها متضمنة فى الأساطير. ومع ذلك، فهو يقر بحضور الأفكار والقيم العلمانية الموجودة مثلا فى الثورة الفرنسية.

- المظهر الثانى: يتمثل فى الأرض المقدسة، فهى مهد الأمة أو المكان، حيث وقعت أهم الأحداث والآثار(٧).

- المظهر الثالث: الذى أشار إليه سميث يتعلق بالبعد الإثنى-التاريخى Ethno-History، وهذا البعد ظهر ليعرف بالأساس مع الاعتداد "بالعصور الذهبية"، والفترات التى تضمنت فضائل أو حقائق الأمة.

- المظهر الرابع والأخير: يتعلق بفكرة بذل النفس والنفيس من أجل الأمة فهى قيم تمجد ويحتفى بها، وتصنع لها تماثيل(٨).

وتجدر مناقشة ثلاث مسائل أساسية، حسبما يراه جيرتجان ديجكينك Gertjan Dijkink. أولا: موضوع فكرة الإقليم المقدس أو الأرض المقدسة، ثانيا: الوصفات أو الفتاوى الدينية ذات الصلة بالسياسات الدولية التى نجد فيها الحرب

١- عبدالله راقدى، مدخل إلى علم الجيوبوليتيكا، محاضرات مقدمة لطلبة ماستر دراسات، جامعة باتنة ١، ٢٠١٦، ص١٥.

٢- جون كيرتلاند رايت جغرافى أمريكى، اشتهر بدراسته لعلم الخرائط، والجيوسوفيا Geosophy، وتاريخ الفكر الجغرافى.

٣- جيوسوفيا Geosophy تتعاطى مع طبيعة وتعبير المعرفة الجغرافية فى الحاضر والمستقبل .. تتعامل مع الرغبات، والدوافع، والأحكام تجاه المجال فى الزمن. للمزيد، انظر:

- Avihu Zakai, Exil And Kingdom History and Apocalypse in the Puritan Migration To America, Cambridge University Pressv Cambridge United Kingdom, 1992, p.70.

4- Gertjan Dijkink, When Geopolitics and Religion Fuse: A Historical Perspective, Routledge Taylor, Fransis Group, Geopolitics, 11: 2006, p.193.

5- John K Wright, Notes on Early American Geopiety, in Avihu Zakai, op.cit, p.71.

6- John Kirtland, Notes on early American Geopoty, in Gertjan Dijkink, op.cit, p.194.

٧- هوية الفرد ترتبط بعدد من الهويات الجماعية الجندرية، والعرق، والطبقات الاجتماعية، والمهنة، والجنسية، وأخيرا المكان. المعنى الذى يأخذه المكان له صلة بالهوية الجماعية الموصولة بمكان معين. لعل تفكيرنا الجيد هو الخاصية الوحيدة للمكان. فالفرد يقاد فى أفعاله بهويات معينة، هذه الأخيرة تقول له من هم، وكيف يستطيع هؤلاء، وكيف لا يستطيعون، وما الذى يجدر بهؤلاء ولا يجدر بهم فعله. انظر:

- Colin Flint, Introduction to Geopolitics (New York, Taylor & Fransis Group, 2006), p. 8

8- Gertjan Dijkink, op.cit, p. 194.

المقدسة أكثر انتشارا(٩). هذه المسائل من شأنها أن تؤسس لعناصر الجيوبوليتيكا الدينية، وتسهم فى تثبيت النزعة الحضارية فى الاستقطاب الدولى الراهن داخليا وخارجيا.

الأرض المقدسة خاصية الأديان الثلاثة:

يشكل مبدأ الخيرية، واحتكار الحق و/أو الحقيقة بالنسبة لأتباع الديانات السماوية أهم مرتكز لإضفاء القدسية على الحيز الجغرافى، والمسمى بـ"الأرض المقدسة"، فهى بذلك السمة المشتركة بالنسبة للأديان الثلاثة، وإن كانت بنسب متفاوتة. فاليهود يعتقدون بأنهم شعب الله المختار، وهبهم الله الأرض المقدسة (فلسطين) بموجب وعد قطعه على نفسه لأنبياء بنى إسرائيل بأن يهب لهم أرضا عاصمتها القدس، وتمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير (نهر الفرات)، وهو ما كان لهم عبر وعد بلفور الذى تمكنوا من خلاله سنة ١٩٤٧ من إنشاء دولة إسرائيل.

الأمر نفسه ينسحب على المسيحية، فقد عملت الكنيسة على إضفاء الصبغة المقدسة على الأماكن وعلى القوانين والشرائع. ففى مرحلة دول المدن الإيطالية، وضعت الكنيسة استراتيجية خاصة بها، وشعائر تقر بالطابع المقدس لآثار الوجود الإنسانى(١٠). على سبيل المثال، فى بداية العصور الوسطى، أضفى الملك بيبان (٧٥١-٧٦٨) القداسة على حكمه، وحصل على إشادة مؤرخين ادعوا بأنه مجتبى بفضل الله من بين أفضل جنود ثقات(١١). وتمكنت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، بموجب اتفاقية عقدتها مع الحكومة الإيطالية فى ١٩٢٩، من تأسيس دولة الفاتيكان على أرضها(١٢).

كما تتفق معظم مدارس الفكر الإسلامى التقليدى، وبعض الاتجاهات الحديثة(١٣) على الأخذ بتقسيم الأرض إلى دار إسلام ودار حرب، انطلاقا من فكرة الولاء والبراء، إلى جانب التقسيم العقدى لأفراد الوطن الواحد، منهم أهل الذمة، فى تحديد الحقوق والواجبات. ولقد بدأ البحث فى الأبعاد الجغرافية للاجتماع السياسى للمسلمين فى وقت مبكر. فأول تحديد تقريبى للمعنى بدار الإسلام يعود إلى الإمام أبى حنيفة. ولعل تقسيم الدار هو إحدى مقدمات الدخول فى أفق الحروب الدينية فى المنطقة. ومعظم الفقهاء المحدثين والمعاصرين يتفقون مع سيد قطب والمودودى فى إقرار هذا التقسيم القديم(١٤). فوهبة الزحيلى يرى "أن ما يميز الدار هو: "وجود السلطة، وسريان الأحكام. فإذا كانت إسلامية، كانت الدار دار إسلام. وإذا كانت غير إسلامية، كانت الدار دار حرب". فكرة تظل قائمة، حيث نجدها فى مطالب الحركات الإرهابية (القاعدة وداعش) التى تسعى إلى إقامة الخلافة، واستعمار الأرض كواجب ومنة من الله، وتفجيرات ١١ سبتمبر التى عدّها تنظيم القاعدة بمنزلة غزوة من الغزوات المقدسة.

الحرب المقدسة:

الحرب المقدسة من الأركان التى ظل الفكر الدينى يستند إليها، سواء تعلق الأمر بالفرد، أو الجماعة، أو الدولة والحكومة. ولقد مكن توظيف الدين من قبل الأمراء، والملوك، والقياصرة، والخلفاء، من الوصول للسلطة والاستمرار فيها، بل والتوسع من أجل الهيمنة(١٥).

وقد تعرض لارى نيروز Lary Nyroos لمصطلح الجيوبوليتيكا الدينية من خلال دراسته للحركتين الأصوليتين فى الشرق الأوسط: حماس الفلسطينية، وشاس الإسرائيلية(١٦). ووفقا له، فإن كلتا الحركتين تدعى بأن الارض المقدسة المتنازع عليها منة من الله أو حق دينى. فبالنسبة لحركة شاس، ووفقا لعقيدتها، فإن الأرض اليهودية تمتد إلى نهر الفرات(١٧). وبحسبه، فإن كلتا الحركتين تعتقد بأن واجبها الدينى يحتم عليهما عدم التفريط فى الأرض. إن وجهات النظر الجيوبوليتيكية هذه والمنطوية على العنف لا تتوافق مع نظام "وستفاليا" الدولى الذى يقر بوجود نزاعات حدودية، لكن لا يعترف باداعات معينة أو خاصة على المنطقة

9- Ibid.

10- Gertjan Dijkink, op.cit, p.196.

11- Ibid, p.197.

١٢- تعرف باسم دولة مدينة الفاتيكان، وهى أصغردولة من حيث المساحة فى العالم، تقع فى قلب مدينة روما. وتبلغ مساحة الفاتيكان ٠,٤٤ كم مربع، ويقرب عدد سكانها من ٨٠٠ نسمة.

١٣- بالرغم من ظهور آراء مخالفة لفكرة التقسيم العقدى القائم على الفصل الصارم بين الأنا المسلم، والآخر غير المسلم، تحت مسمى دار إسلام، ودار حرب، من أمثال حسن الترابى، فى كتابه السياسة والحكم: النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع، حيث يرى "أن الموالاة على الأرض توحد أمة أهل الملل المختلفة فيها، مثل اليهود والمسلمين فى دار المدينة"، ويقول أيضا "وهدى الدين أن الأرض لله وعباده، والسلطان فيها عقد بين من يتوالون عليه ويتحاكمون إليه فى دار منها" ص٣٣٦، بيروت: دار الساقى، ط٢,٢٠٠٤. غير أن الصوت الأكثر تأثيرا فى مواقف الاتجاهات المتطرفة والجماعات الجهادية يبقى مصرا على اعتماد التقسيم التقليدى المنسوب إلى عهد الخلافة. للمزيد، انظر: حسن الترابى، السياسة والحكم: النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع، ط٢ (بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٤).

١٤- محمد زاهد جول، الحروب الدينية فى الشرق الأوسط: تنامى منطق "القاعدة":

- https://goo.gl/3BpyK7

15- Gertjan Dijkink , op.cit, p. 199.

16- Ibid.

١٧- يعتقد اليهود أنها الأرض التى وعد الله بها نبيه يعقوب، والممتدة من نهر مصر إلى نهر الفرات، كانت فى البدء لإبراهيم، وانتقل العهد إلى ابنه إسحاق، إلى أن وصل إسناد أرض الميعاد إلى أولادهم.

نفسها من أجل إنشاء أو تشكيل نوع من الثيوقراطية(١٨).

ويبرز توظيف الدين خلال فترة القرون الوسطى، حيث الحروب الصليبية، والجهاد، والفتوحات، إذ كانت الحرب والتوسع واجبا دينيا(١٩). وتوجد بعض التشابهات بين الصراع فى العصور الوسطى من أجل الهيمنة، والذى كان قائما بين الكنيسة والدولة. هذا الصراع الذى أدى إلى الحملات الصليبية، وهو ما ينسحب على الحركات الإسلامية التى تتجاهل النظام السياسى-الإقليمى إلى منظور أكثر نزوعا نحو القطبية، ومقاومة الفاعلين الجيوبوليتيكيين مثل الولايات المتحدة (الشيطان الأكبر)(٢٠). ويمكن الإشارة إلى الاصطفاف المذهبى داخل ما يسمى بالعالم الإسلامى بخصوص تأمين الأماكن المقدسة، فى أثناء الحج، حيث أقدمت إيران على الدفع بحجاجها إلى زيارة الأماكن المقدسة فى العراق بدل السعودية، واصطفاف معظم الحكومات السنية وراء السعودية، جراء اتهامها لأنصار الله (الحوثيين) باستهداف الأماكن المقدسة بمكة بصواريخ باليستية. ويعد حوض المتوسط منطقة اتصال وتجاذب واحتكاك لقرون بين حضارتين متجاورتين تمثلان عالما أوروبيا مسيحيا وعالما إسلاميا(٢١). لذا، يمكن القول إن حوض المتوسط يحظى بجيوبوليتيكا لا متوافقة ومتناقضة.

٢-الإرهاب واليمين المتطرف:

أ-اليمين المتطرف:

شهدت الساحة الأوروبية، مع بداية ثمانينيات القرن العشرين، انتشار وتنامى دور الأحزاب اليمينية المتشددة، التى استطاعت أن تحتل مكانا لها ضمن الخريطة الحزبية الأوروبية. وقد أثير نقاش كبير حول مسألة ما إذا كان اليمين المتشدد ظاهرة جديدة، أو مجرد إعادة بعث للحركات الفاشية الموجودة أصلا(٢٢). إن أولئك الذين درسوا اليمين المتشدد فى المرحلة المعاصرة يشيرون إليه بعدّه "يمينا جديدا"، أو "اليمين المتشدد"، أو "الفاشيين الجدد"(٢٣)، أى الفواعل غير الحزبية، التى بحسب اجنازى لا تهدف لتغيير الحكومة فقط، وإنما أيضا لتغيير نظام الحكم(٢٤).

ويشمل تصنيف مود كاز لليمين المتطرف كل الفاعلين من الأحزاب ومن غير الأحزاب. وتختلف هذه الفواعل على نطاق واسع من خلال الاستراتيجيات التى تستخدمها فى إيصال سياستها المفضلة، بدءا من السياسة الانتخابية، إلى سياسات الشارع، إلى الموسيقى، إلى جماعات المصالح. فهؤلاء فى نهاية المطاف متحدون فى اعتقادهم إزاء الأجانب بحسبان أنهم يشكلون تهديدا للأمة. ومن ثم، يجب اتخاذ الإجراءات الضرورية للتقليل، إن لم يكن القضاء على هذا التأثير الأجنبى. ففى أوروبا المعاصرة، تركز معظم هذه المجموعات على إدراكاتها للتهديد الذى تشكله ظاهرة هجرة المسلمين، وتدعو إلى إجراءات صارمة حيال الهجرة، وسياسات اللجوء، لاسيما الهجرة القادمة من بلدان شمال إفريقيا والشرق الأوسط(٢٥).

وأخيرا، قد لا يستخدم اليمين المتشدد المعاصر الخطاب العنصرى بشكل علنى ضد مجموعة الأقليات، ولكن يفضل تيار اليمين تصوير منظمتهم بعدّها المدافع عن القيم الغربية، وحامية المواطنين الذين، من وجهة نظرهم، أصبحوا مهمشين داخل مجتمعهم(٢٦).

ب-الإرهاب:

تقابل كلمة Terrorisme عادة كلمة إرهاب. ولكن أدونيس العكرة يجادل بأنها لم تستعمل للدلالة على الواقع السياسى إلا أخيرا(٢٧).

ويرى العكرة أن هناك ثلاثة عناصر رئيسية لمفهوم الإرهاب(٢٨):

- عنصر سيكولوجى يتجلى فى حالة الرعب التى يزرعها فى النفوس.

- عنصر سياسى ينصرف إلى دلالاتها بالنسبة لنسق معين من الحكم. وبدون هذا المعنى، تصبح مجرد ردة فعل عنيفة، تلقائية وفردية.

- عنصر سلطوى يتعلق بأصحاب السلطة. وبدون هذا المعنى، تصبح فعلا إجراميا يخضع لأحكام القانون الجنائى العام.

18- Gertjan Dijkink , op.cit, p.199.

19- Ibid.

20- Ibid, p.200.

21- Yves Lacoste, Geopolitique de la Mditerrane (Paris: Armand Colin, 2006), p.21.

22- Cole Alexandra, "Old Right or New Right? The Ideological Positioning of Parties of the Far-right". In Shannon Jones, Mapping Extremism: The Network Politics of the Far-Right, A Dissertation Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy in the College of Arts and Sciences, Georgia State University, 2016, p.6.

23- Ibid.

24- Shannon Jones, op.cit. p.6.

25- Mudde Cas, Populist Radical Right Parties, in Shannon Jones, op.cit, p.11.

26- Ibid.

٢٧- أدونيس العكرة، الإرهاب السياسى: بحث فى أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية، مرجع سابق، ص٣٩.

٢٨- المرجع نفسه.

ثانيا - تحديات المتوسط بعد الحرب الباردة:

١- الصراعات الثقافية/الدينية:

حسب صمويل هنتنجتون، فإن الصراعات المهمة، والملحة، والخطيرة فى العالم الجديد لن تنشب بين الطبقات الاجتماعية، أو بين الغنى والفقير، أو بين جماعات أخرى محددة اقتصاديا، وإنما ستكون بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة. سوف تحدث الحروب القبلية والصراعات العرقية داخل الحضارات. مثلا، ما يحدث داخل دول العالم الاسلامى من اصطفاف بين السنة والشيعة، ووقوف الدول السنية، ماعدا تحفظ العراق، مع السعودية فى إدانة ما ادعته هجوما صاروخيا على الأماكن المقدسة فى مكة.

وفى ذلك، يرى هنتنجتون اضمحلالا فى الدوافع التى سادت فى فترة الحرب الباردة أمام التفسيرات الحضارية، سواء فى الإسلام، أو فى المسيحية. فنجد قادة البلقان يتحدثون عن بلورة تحالف يونانى-صربى-بلغارى أرثوذكسى. وزعم رئيس وزراء اليونان أن "حرب البلقان أعادت إلى السطح أصداء الروابط الأرثوذكسية... لقد كانت روابط كامنة. ولكن مع التطورات فى البلقان، أصبحت تأخذ شكلا محددا. فى عالم مائع تماما، الناس يبحثون عن الهوية والأمان، وعن جذور وصلات لحماية أنفسهم من المجهول"(٢٩).

فتركيا، منذ وصول حزب العدالة والتنمية، وإفصاحها عن أيديولوجيتها الإسلامية، تعمل على إعادة تأكيد دورها كرائدة للسنة فى مواجهة إيران الشيعية، لاسيما مع بروز ما يسمى "ثورات الربيع العربى"، وفوز أحزاب إسلامية (الإخوان المسلمون فى مصر، والمغرب، والأردن) ترغب فى بعث ما يسمى بالعثمانية الجديدة. فالنزاع فى سوريا أصبح إلى حد كبير مكانا للصراع فى إطار المنظومة الإسلامية بين المذهبين السنى والشيعى (تركيا مع دول الخليج تساند حركات مسلحة سنية، فى مواجهة إيران المساندة لحكومات العراق وسوريا، ولأنصار الله "الحوثيين" فى اليمن). كما تحاول تركيا مع بعض الدول والحكومات العربية تأكيد دورها كحامية للبلقان من خلال دعم مسلمى البوسنة. ولقد ساندت روسيا الاتحادية الصرب الأرثوذكس فى يوغوسلافيا (سابقا)، فى حين ساعدت ألمانيا كرواتيا الكاثوليكية(٣٠). وكما لاحظ ميشا جلينى، فإن فأسين تظهران، واحدة ترتدى لباس الأرثوذكسية الشرقية، والثانية محجبة فى الثوب الإسلامى. وهناك احتمال لصراع أعظم من أجل النفوذ بين محور بلغراد/أثينا، والتحالف الألبانى-التركى(٣١).

٢- مشكلة الهجرة والهوية القومية:

أدى تنامى ظاهرة هجرة المسلمين نحو أوروبا فى العقود الأخيرة، لاسيما فى ظل ما يسمى "الربيع العربى"، إلى بروز شعور ووعى لدى الأوروبيين بعدم وجود إمكانية للتعايش بين الثقافتين الإسلامية والأوروبية (المسيحية). ولأن هذا الوضع يتجه نحو الصراع والنزاع، فستكون الجيوبوليتيكا الدينية الأداة التى يمكن أن تزودنا بالتفسير الجيد للنزاعات التى ستنشأ بين الغرب المسيحى، ومجتمعات الضفة الجنوبية(٣٢).

تهدف سياسات التعدد الثقافى إلى الحد من الإقصاء(٣٣)، وتدفع فى اتجاه الاعتراف بالحق المشروع لكرامة الأشخاص. ويترجم هذا بداهة فى إشعارهم وتوعيتهم بمخاطر إنكار هويتهم الإثنو-ثقافية(٣٤). ويجد عدم الاهتمام بهذه الثقافات "التعدد الثقافى" جذوره العميقة فى التقليد الغربى فى الاتجاهات السياسية التى تدعى العالمية (كالماركسية)، وفى وجهات النظر التى تتبناها الأنظمة الجمهورية الليبرالية(٣٥).

ومما يغذى طابع الحيطة والحذر تصاعد عدد المحاولات الإرهابية بشكل أكثر حدة منذ سنة ٢٠٠٠، وغياب الاستقرار السياسى فى الشرق الأوسط، والقلق المتزايد حيال الإدماج الاجتماعى والاقتصادى للأقليات المهاجرة (خاصة عندما يتعلق الأمر بديانة مخالفة لهؤلاء). وتخلق هذه التطورات حالة من القلق تدفع بالديمقراطيات الليبرالية إلى الانكماش على نفسها، والانغلاق على هوياتها الخاصة(٣٦).

تواجه أوروبا مشكلة وضع أنسب السياسات لمشكلة التنوع الذى يطرحه وجود المسلمين والعرب، لأنه لا يكفى وضع الهياكل والمؤسسات، وتشريع القوانين. وتعقدت المشكلة كثيرا مع وصول أعداد كبيرة من المهاجرين، كما هو الحال مع بلدان كألمانيا (٣,٨ مليون-٤,٣ مليون)، فرنسا (نحو ٥ ملايين)، المملكة المتحدة (١,٦ مليون)، هولندا (١,١ مليون)، إيطاليا

٢٩- صمويل هنتنجتون، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمى، ترجمة: طلعت الشايب، ط ٢، ١٩٩٩، ص٢٠٥.

٣٠- المرجع نفسه، ص٢٠٥.

٣١- المرجع نفسه، ص٢٠٦.

32- Rogowski Rand Turner C. (eds), The Shape of the New Europe. Cambridge: Cambridge University Press, 2006, p.13.

٣٣- يشكل تنوع اللغات وتعدد الأديان فى الهند، البالغ تعداد سكانها أكثر من مليار ساكن، ظاهرة شائعة. فالهندوس يشكلون أكثر من ٨٢٪ من السكان، وهم المتميزون بتنوع معتقداتهم الدينية، وعاداتهم، ولغاتهم. أما باقى السكان، فيتوزعون بين مسلمين (١٢٪)، ومسيحيين (٢,٣٤٪)، وسيخ (١,٩٤٪)، وبوذيين (٠,٧٦٪)، وغيرهم (٠,٣٩٪).

٣٤- باتريك سافيدان، الدولة والتعدد الثقافى، ترجمة: المصطفى حسونى، ط ١ (المغرب: دار توبقال)، ٢٠١١، ص١٦.

٣٥- المرجع نفسه، ص٣٤.

٣٦- المرجع نفسه، ص٤١.

(مليون)، فضلا عن دول أخرى(٣٧)، علاوة على بلغاريا التى يعد المسلمون فيها من السكان الأصليين، فقد استقر المسلمون الأوائل الوافدون إلى بلغاريا فى القرن الرابع، فضلا عن وجود عدد من الأقليات البلغارية والغجرية تنتمى إلى مسلمى بلغاريا(٣٨).

وتتجلى مشكلة الإثنيات المختلفة، المشكلة للنسيج الاجتماعى الأوروبى، والتى تحتل الحزام الخارجى للمدن، فى عدم قدرتها على الاندماج من جهة، والتهميش المنهج من جهة أخرى، الأمر الذى يشكل تحديا جوهريا تواجهه دول الاتحاد الأوروبى. وتُعد الأقليات المسلمة فى البلدان غير الإسلامية من بين الأقليات الأكثر تعبيرا عن عدم رضاها وتعرضها للقمع، فى ظل حكم غير إسلامى سيئ، كما تظل ثابتة فى التعبير عن قضيتها الإسلامية، علاوة على المنطلقات الوطنية(٣٩).

ففى فرنسا أسهم القانون الفرنسى، الذى يجيز التجمع العائلى فى الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٢، فى تغيير نسبة المسلمين فى فرنسا، حيث تحولت الهجرة من ظرفية اقتصادية إلى هجرة نهائية. وقد أدى هذا التوجه الجديد إلى تمكين الإسلام من الحضور الدائم فى فرنسا العلمانية، من خلال حصول أبناء المهاجرين على الإقامة، بدءا من ثمانينيات القرن العشرين(٤٠)، وهى الفترة ذاتها التى عرفت نموا مطردا فى ظاهرة التدين.

يمثل الاسلام الديانة الثانية فى فرنسا، وينظر إلى المسلمين كجماعة تأبى الاندماج، كما ينظر إليها من قبل النخبة الفرنسية على أنها جماعة دينية مهيكلة تبث فى الرأى العام الفرنسى تصورات سلبية مناقضة لقيم المجتمع. ويعبر رافائيل لوجى Raphal Liogier عن هذا الوضع بالقول،" إن المسلم الميتافيزيقى، ووفقا لتصورات ميتافيزيقية صوفية، يؤمن بسموه عن الصفات الإنسانية من لحم وعظم". ويضيف أن المسلم ينظر له كما لو كان يخلو من الخصوصيات الجهوية (الإقليمية) الاجتماعية، والاقتصادية، وأيضا الشخصية(٤١).

إن الوافدين الجدد بما لهم من معتقدات، وعادات، وتقاليد، ولغات مغايرة، يسعون بقوة للمحافظة على تقاليدهم الثقافية وقيمهم فى بيئتهم الجديدة(٤٢). غير أنهم يجدون أنفسهم غير مهيئين للاندماج فى المجتمعات الحديثة، ومتمسكين بهوياتهم التقليدية، ومطوقين فى الجيوب أو الضواحى التى يقطنون فيها. فى ظل هذا الوضع، يجد الإسلاميون البيئة الملائمة للعمل والنشاط فى أوساط الجاليات المهاجرة فى الغرب بهدف تقديم المساعدات للمجتمع من أجل حماية القيم الإسلامية، والهويات، وبنية تلك المجموعات المتميزة(٤٣).

ويكون المهاجرون الموجودون فى المجتمعات الغربية المتعددة الثقافات فى أمس الحاجة إلى المحافظة على الهوية الإسلامية. لكن من جهة أخرى، يؤدى ذلك إلى تعمق الانقسام والخلافات مع الثقافة المحلية(٤٤). ويرى بعض الأوروبيين فى هذا التوجه حربا معلنة لتدمير حضارتهم، وأسلوبهم فى الحياة(٤٥).

٣- جنوب المتوسط: إخفاق الدولة الوطنية:

اصطدم مشروع بناء دولة ما بعد الاستقلال العربية بواقع يعكس منظومة ثقافية عربية إسلامية تقليدية، تشكلت بفعل تداخل، وتدافع، وتفاعل بين بنية الواقع العربى. ويرى المدافعون عن هذا الواقع أنه متكامل، ومستقل، وصالح لكل زمان ومكان (تيارات الإسلام السياسى). فظهرت أفكار حداثية للإصلاح والتحرير الفكرى، قادها رواد النهضة العربية، من أمثال محمد عبده، وعلى عبد الرازق، وطه حسين. وهى نخب سعت بالأساس إلى نقل المجتمعات العربية بالخصوص إلى مرحلة الحداثة، حيث قيم الحرية وحقوق الإنسان. لكن فشل مشروع الدولة الوطنية فى إقامة نظام سياسى يحقق التنمية المنشودة، حيث الأمن، والاستقرار، والحريات، والرفاه. وشمل الإخفاق

37- Anna Triandafyllidou, European Muslims: Caught between Local Integration Challenge and Global Terrorism Discourses, Istituto Affari Internazionali, p.5.

- http://www.osce.org/networks/166511?download=true

38- Ibid.

39- Graham E Fuller The Future of Political Islam (New York: Palgrave Macmillan, 2004), p.71.

40- Nadia Henni-Moulai, Portrait des Musulmans de France: Une Communaut Plurielle, foundation pour l'Innovation Politique, p.17.

- http://www.fondapol.org/wp-content/uploads/086/06/2016-HENNI-MOULAI-2016-06-15-web.pdf

41- Raphal Liogier Le Mythe de l'Islamisation. Essai sur une Obsession Collective, Nadia Henni-Moulai, Portrait des Musulmans de France: Une Communaut Plurielle, Foundation pour l'Innovation Politique, p.18.

– يستعمل الصوفيون ثلاثة ألفاظ: التخلى، التحلى، التجلى. يتخلى أولا عن الصفات الإنسانية، ثم يتحلى بالصفات الإلهية، ثم يتجلى الله له. للمزيد حول هذا الموضوع، انظر:

42- Graham E Fuller , op.cit, p.72.

43- Ibid.

44- Graham E Fuller , op.cit, p.72.

45- Fallaci O, The Rage and the Pride, In Sherene Razack Geopolitics, Culture Clash, and Gender After September 11, Social Justice, Vol. 32, No. 4 (2005), p.17.

بناء مؤسسات حكم راسخة وإرساء دعائم دولة القانون بما يضمن سلاسة تنظيم الشئون العامة لهذه المجتمعات، وتوسيع دائرة الحكم لتشمل أفراد الأمة عبر ممثليها فى إطار القواعد المتعارف عليها فى آليات إدارة الدولة الحديثة ديمقراطيا، والدفع بعجلة التنمية المحققة للاستقلالية المنشودة، مع ضمان عدالة التوزيع للثروة.

تحديات الحداثة: تنامى الحركات المتطرفة:

حاولت دولة ما بعد الاستقلال العربية نقل المجتمعات إلى مرحلة الحداثة، حيث القيم والأفكار الغربية العقلانية (الديمقراطية، واقتصاد السوق)، والتى انتشرت بفعل الثورة التكنولوجية، عبر وسائل وأدوات الاتصال. ولقد كان لهذا المسعى تأثيرات كبيرة مست مختلف الجوانب (سياسية، واقتصادية، وثقافية، ومجتمعية). فعلى سبيل المثال، لا الحصر، مست تلك التغيرات حركة النزوح من الريف نحو المدن، مما أنتج أوضاعا جديدة شكلت تحديات أمام مسعى اندماج وعيش هؤلاء الوافدين الجدد، بل وتحديات ومصاعب للإدارة الجيدة للمدينة. فتم ترييف المدينة بدلا من تمدين الريف، مما أدى إلى تراجع قيم الريف، والقرية، والأسرة، وتفكك العلاقات الاجتماعية، وتجاوز بساطة طرق الحياة التقليدية التى تتحطم فى الغالب عند الدخول إلى المدينة. هذه الحالة خلقت التوتر النفسى نتيجة السعى من أجل الاستمرار فى العيش بالقيم المألوفة(٤٦).

لقد ساعد النزوح الريفى إلى المدن على حدوث تغير فى نمط الحياة، والسلوك، والعلاقات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية واختلال ديموجرافى. بفعل ما يحمله النازحون من قيم، وأعراف، ورغبة فى الاندماج فى حياة المدن، ومن ثم فى الخضوع الإرادى لأدوات الضبط الاجتماعى، والتعطش لحياة المدينة، وترفها، وملذاتها المادية والمعنوية. وهم فى ذلك يصطدمون بمشاكل المدينة وعقباتها، وبـ "مترفى" الأحياء الراقية التى دخلوها عنوة ليحدثوا فى حياة المدينة خللا وفوضى اجتماعية، واقتصادية، وحتى سياسية، وفى العلاقات الاجتماعية تفككا، وفى توزيع الأدوار والمكانات الاجتماعية تدميرا، خصوصا فى حالة غياب أمن اجتماعى واستقرار سياسى(٤٧). ففى هذا السياق، تدرك الحركات الإسلامية جيدا ضغوط الحياة الحضرية، ومساعى التخفيف من حدة هذه الضغوط، عبر تقديم نوع من الإطار الأخلاقى للقيم المألوفة، تهدف إلى الحفاظ على التماسك الاجتماعى، والانضباط فى وجه قوى الطرد المركزى الآتية من المدينة. فكان لها أن تغلغلت فى الأوساط الشعبية، فى ظل هشاشة الدولة ومؤسساتها لتشغل ذلك الفراغ، وتؤسس لتوجهاتها المتطرفة المبنية على الرفض الثورى للواقع، مما أوجد ملاذات آمنة لإنتاج التطرف، وتسويق المتطرفين فى شكل جماعات إرهابية، تتبنى المقدس، وتلغى الآخر.

ثالثا - القوى المحركة للصراع الجيوبوليتيكى فى المتوسط:

١- الخطاب الأوروبى المعادى للأجانب:

تمر أوروبا منذ عقود بتحولات مجتمعية غير مرئية تنحو إلى العودة إلى قيم الذات لتفادى مخاطر التهديد الوافد من الأجانب (المسلمين والعرب بالأساس). لقد تمت ترجمة هذه العودة إلى القيم الغربية المسيحية، ورفض الآخر بتأييد حركات وأحزاب اليمين. فعلى سبيل المثال، لا الحصر، حصل الاتحاد المدنى المجرى (فيدس) على ١٣٣ مقعدا من أصل ١٩٩ فى الانتخابات البرلمانية المجرية لعام ٢٠١٤، وهو لا يمثل فقط القومية المجرية المعادية للأجانب، ولكن أيضا يحمل مشاعر مناهضة للاتحاد الأوروبى، والحركة "من أجل هنجاريا أفضل (جوبيك)". كما فاز حزب يمينى آخر متطرف مع موقف أيديولوجى أكثر تطرفا بـ ٢٣ مقعدا(٤٨). كذلك الأمر فى انتخابات برلمان الاتحاد الأوروبى عام ٢٠١٤، عندما تمكن حزب الجبهة الوطنية من الحصول على ٢٣ مقعدا من أصل ٧٤ مقعدا(٤٩). ثم بعد ذلك عندما حققت مارين لوبان إنجازا غير مسبوق بحصولها على المركز الثانى فى انتخابات الرئاسة التى جرت فى مايو ٢٠١٧. كما ينظر للفوز الانتخابى الذى حققه دونالد ترامب فى انتخابات الرئاسة الأمريكية بمنزلة انتصار لقيم المحافظين الجدد القائمة على ثنائية العرق الأبيض، والقيم الدينية المسيحية. وسيكون لذلك رجع صدى على إعادة رسم الخريطة الحزبية، ومن ثم نظم الانتخابات فى أوروبا.

٢- خطوط التقسيم الحضارى:

يرى هنتنجتون أن دعم الهويات الحضارية يحصل حتى داخل المنظومة الحضارية الواحدة، وقد تكون أسبابها صراعات

46- Graham Fuller, op.cit, p.68.

47- Ibid.

48- Adam Carr's Election Archive, In, Jungmin Song, Who Supports Radical Right Parties and Where Do Radical Right Parties Succeed: Multi-level Analysis of Radical Right Parties' Success, 2016 WPSA Annual Meeting, University of Iowa, p. 2.

- https://wpsa.research.pdx.edu/papers/docs/Jungmin%20Song%20-%20Who%20Supports%20Radical%20Right%20Parties%202016%20WPSA.pdf (access nov 2016).

49- Russo Luana, France: The Historic Victory of the Front National, In, Jungmin Song, Who Supports Radical Right Parties and Where Do Radical Right Parties Succeed: Multi-level Analysis of Radical Right Parties' Success, 2016 WPSA Annual Meeting, University of Iowa, p. 2.

- https://wpsa.research.pdx.edu/papers/docs/Jungmin%20Song%20-%20Who%20Supports%20Radical%20Right%20Parties%202016%20WPSA.pdf (access nov 2016).

أسرية، أو عشائرية، أو قبلية. ولكن لأن الهويات فى العالم الإسلامى أقرب إلى شكل "U"، فإن الصراع كلما استمر، يلجأ المشاركون المسلمون لتوسيع هويتهم إلى (كل الإسلام)(٥٠). يقول أحد الدبلوماسيين عن زعيم صرب البوسنة (كارادجيك) إنه (يرى تلك حربا ضد الاستعمار فى أوروبا، ويتحدث عن أنه يحمل مهمة إزالة الآثار الباقية للإمبراطورية التركية العثمانية فى أوروبا)(٥١).

فى الضفة الجنوبية للمتوسط، وأمام فشل المشروع النهضوى الحداثى، ستعمل حركات الإسلام السياسى، والحركات الإرهابية على طرح نفسها كبديل شامل ومتكامل عن المشروع الليبرالى. إلا أن ذلك لا يكون سوى بالوصول إلى الحكم الذى لم تحسم كيفية الوصول إليه. وفى ظل غياب آليات إدارة الاختلاف، والتنوع والصراع بالطرق السلمية، سوف تعمد مختلف القوى المتصارعة إلى توظيف كل موارد القوة المختلفة فى الصراع، مما يؤدى إلى الدخول فى المواجهات المسلحة التى تفضى إلى عدم الاستقرار.

مقابل ذلك، تتمكن الدول فى الضفة الشمالية من التوافق على المشروع الذى يكامل بين الهوية القيمية والعرقية، فى ظل التوافق على آليات الوصول إلى السلطة. ثم تتجه بعدها إلى محاولة التوسع من أجل الوفاء بمتطلبات مواطنيها، وتطوير خطاب وسياسة محورهما إعادة سكان الجنوب إلى دين أسلافهم فى الإمبراطورية الرومانية، بدعوى السيطرة على مناطق لا تعرف الاستقرار. هذا وإن لم تتمكن من ذلك، فستعمل على دعم طرف على حساب آخر بما يكفل استمرارها فى السيطرة.

خاتمة:

سعت هذه الدراسة إلى البحث فى مسألة تنامى دور الإرهاب واليمين المتطرف المحركة للنزاعات الجيوبوليتيكية فى منطقة البحر المتوسط. وخلصت إلى أن نكوص المجتمعات الإسلامية نحو التراث، وفشل دول ما بعد الاستقلال فى تحقيق التنمية المنشودة، وانهيار البنى الاجتماعية والاقتصادية، كلها عوامل تسببت فى نزاعات واضطرابات داخلية، وتدفق موجات هجرة كبيرة نحو أوروبا. وفى ظل فشل الديمقراطية الليبرالية فى إدارة التنوع، قوبلت ظاهرة المهاجرين بالرفض من قبل تيار اليمين المتطرف المنتشر فى المجتمع، استنادا إلى فكرة واحدة، مفادها أن المهاجرين، وأبناءهم، وأحفادهم هم سبب مشاكل أوروبا.

وسينعكس تأثير اليمين المتطرف على السياسة الخارجية للدول الأوروبية، حيث ستغدو ذات نزعة قيمية حضارية، بينما سيستمر تخبط مجتمعات الضفة الجنوبية للمتوسط فى أزمات ونزاعات الصراع على السلطة. وستعمل الأحزاب الإسلامية فى ظل فشل الدولة العلمانية فى تقديم نفسها كبديل لتحقيق التنمية والرفاه، الأمر الذى سيمكنها من توظيف قيم الدين فى التعاطى مع الشئون الدولية.

ومن شأن إقحام البعد الحضارى الدينى فى التنافس والصراع بين دول ضفتى المتوسط أن يؤسس لحروب مستعصية طويلة المدى، وهو ما يهدد المنطقة فى استقرارها الأمنى، وما ينشأ عنه من تداعيات على المستويات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية. ولا أدل على تنامى النزعة الدينية فى التعاطى مع الملفات الأمنية بالمنطقة من الحضور القوى للعمل الإرهابى المنسوب للجماعات المتطرفة ذات التوجه الإسلامى، وهو ما يشكل وقودا إعلاميا فى إذكاء روح النزعة الانتقامية لدى الأوساط الشعبية فى تأييد خطاب الكراهية الذى يتبناه اليمين المتطرف. وسوف تتأجج النزاعات الدينية الحضارية والثقافية داخل دول البحر المتوسط، وفيما بينها، على غرار حروب الفتوحات (العرب المسلمين)، أو حروب القرون الوسطى والاستعمارية.

■ ■ ■

٥٠- المرجع نفسه، ص٤٣٤.

٥١- المرجع نفسه، ص٤٣٩.